تجليات الحرب النفسية في حروب العرب ضد الروم في شعر أبي فراس الحمداني

أ.عايدة سعدي
قسم اللغة والأدب العربي
كلية الآداب و اللغات
جامعة محمد الشريف مساعدية - سوق أهراس.

ملخص

من الأمور المقدرة على بني البشر طيلة مسيرة حياتهم أن يعيشوا في صراع و حروب أبدا لا تنتهي ، إرضاء للمطامع و الرغبات على حساب أطراف أخرى ، متمخضة في ذلك عن طرفي ثنائية تحتمها ساحة الحرب من: غالب / و مغلوب – منتصر / و منهزم .

و في دراستنا هذه حاولنا أن نركز على الإستراتيجية غير المباشرة في الحروب و المتمثلة في الحرب النفسية ، أي العامل النفسي و دوره في فرض السيطرة على العدو و هزمه بأقل التكاليف ، فليس دائما يتوسل الطريق إلى النصر بالوسائل المادية العسكرية (الإستراتيجية المباشرة).

و بما أن الحرب النفسية اتخذت من الكلمة الأساس أو الوقود الذي تعول عليه في شحن النفوس في ميدان الحرب أو تثبيطها ، فإنها بالتالي سلاح لا يقل شأنا عن سلاح السيف في النيل من العدو .

و من الذين ولعوا بتوظيف هذا السلاح في تراثنا العربي الشاعر الفارس " أبو فراس الحمداني " في حروبه ضد البيزنطيين . و قد تنوع توظيفه للعامل النفسي في هذه الحروب.

Résumé

Vivre dans les conflits et les guerres d'une Facon constante et interminable, apparemment, est un destin désigné pour l'être humain afin de subvenir aux besoins, ambitions et désires qui ne cessent de s'agrandir . cette situation qui donne à la fin deux cotés du champ de bataille: vaincu / vainqueur.

Dans cette étude, nous avons essayé de concentrer sur la stratégie de la guerre indirecte qui est la guerre psychologique, qui représente un facteur psychologique qui

joue un rôle essentiel en imposant le contrôle sur l'ennemi et l'a vaincu au moindre coût, il n'est pas toujours plaider le chemin de la victoire avec les moyens militaires (stratégie directe).

en tant que la guerre psychologique prend de la parole comme un carburant qui charge et décharge les âmes dans le domaine de la guerre , ils sont donc une arme pas moins important que l'arme d'épée dans la guerre contre l'ennemi. dans le patrimoine du poème arabe , ABu FERAS EL HAMADANI , Parmi les poètes qui ont utilisé cette arme dans les guerres contre les Byzantins, qu'il a employé d'une façon diversifiée.

توطئة:

يقول"موارى" : "إن الشخص القتيل هو فقط شخص ناقص ، أما الشخص الذي انهارت أعصابه فهو محور الخوف الذي يستشري كالمرض المعدي بسهولة ، و القادر على نشر وباء الهلع "[1].

من هنا يأتي دور العامل النفسي في ميدان الحروب و المعارك ، هذه الظاهرة التي رافقت الإنسان منذ تاريخه الطويل ، فهي(الحروب) ترتبط بالإنسان و بأنانيته المتمثلة في حب الامتلاك و حب البقاء . فالصراع بين بني البشر أو بينهم و بين مظاهر الطبيعة الأخرى قابع في أعماق حياة البشر ، فلا يهدأ لهذا الإنسان بال ، إذ لا ينتهي من حرب إلا و فكر في خوض أخرى ، و لعل في قصة مقتل هابيل على يد أخيه قابيل خير دليل على قدم هذه الظاهرة.

و تختلف دوافع قيام الحروب ، و تتنوع بين الباحثين ، لكننا سنكتفي بما أورده "ابن خلدون" في مقدمته بهذا الصدد ، مجملا طبيعة الحرب و أسبابها (في الفصل السابع و الثلاثين : في الحروب و مذاهب الأمم في ترتيبها) فيقول : " اعلم أن الحروب و أنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ برأها الله ، و أصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض،و يتعصب لكل منها أهل عصبيته، ، فإذا تذامروا لذلك و توافقت الطائفتان ، إحداهما تطلب الانتقام ، و الأخرى تدافع كانت الحرب ، و هو أمر طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمة و لا جيل.

و سبب هذا الانتقام في الأكثر: إما غيرة و منافسة ، و إما عدوان ، و إما غضب لله و لدينه ، و إما غضب للملك و سعي في تمهيده . فالأول أكثر ما يجري بين القبائل المتجاورة و العشائر المتناظرة .

و الثاني ، و هو العدوان ، أكثر ما يكون من الأمم الوحشية الساكنين بالقفر كالعرب و الترك و التركمان و الأكراد و أشباههم ، لأنهم جعلوا أرزاقهم في رماحهم ن و معاشهم فيما بأيدي غيرهم، و من دافعهم عن متاعه آذنوه بالحرب...و الثالث و هو المسمى في الشريعة بالجهاد . و الرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها و المانعين لطاعتها . فهذه أربعة أصناف من الحروب : الصنفان الأولان منها حروب بغي و فتنة ، و الصنفان الأخيران حروب جهاد و عدل "[2].

فالحرب إذن أبشع ظاهرة عرفتها الإنسانية عبر تاريخها الطويل ، و يبقى الهدف الرئيس منها هو " إرغام الخصم على تنفيذ إرادتنا ، يتسلح العنف لمجابهة العنف ، بكل ما يمكن أن يقدمه

العلم و الفن من منجزات و مخترعات ... و هكذا يمكن القول إن العنف المادي هو الوسيلة ، بينما تبقى الغاية فرض إرادتنا على العدو"[3].

من خلال هذا القول ، يتبين لنا أن العامل المادي العسكري – أو كما يحلو للبعض بتسميته بالإستراتيجية المباشرة- ليس وحده كافيا في ضمان النصر و كسب الحرب ، ما لم يكن متماشيا جنبا إلى جنب مع عامل آخر مهم أيضا ألا و هو العامل المعنوي أو النفسي (الإستراتيجية غير المباشرة) ، إذ الأخير كفيل في بعض الأحيان في كسب النصر بأقل التكاليف ، بل و من دون إراقة قطرة دم.

و عليه ، جاء تركيزنا في مداخلتنا هذه على العامل المعنوي في الحروب ، أو ما يسمى حديثا ب " الحرب النفسية " ، التي اختلفت و تنوعت تعريفاتها بين زمرة من الباحثين ، و مهما يكن الأمر فقد تطور مفهومها خاصة بعد الحرب العالمية الثانية .

و الحرب النفسية و إن كان لها جذور ضاربة في القدم ، كنقش الإنسان القديم و رسوماته على جدران كهوفه أدواته و أسلحته لإخافة خصمه ، أو حتى على مستوى الكلمة فيما تعلق بهجاء الشاعر الجاهلي لخصومه ممن ينتمون لقبيلة أخرى ، و تعييرهم بعدم الثبات في الحروب ، و عدم التمكن من منعة مساكنهم و نسائهم من السبي و بالتالي هزيمتهم .

إلا أن الحرب النفسية ظلت مرافقة لهذا الإنسان طالما أن هناك حروب ، و طالما يتواجد هناك طرفان أو قطبان: قوي/ ضعيف ، غالب/ مغلوب ، قاتل / مقتول، مسيطر / مسيطر عليه.

و من التعريفات الحديثة للحرب النفسية ما جاء في نسخة خطية للبحرية الأمريكية أعدت عام 1946 جاء فيها: " إن المهمة الأساسية للحرب النفسية هي فرض إرادتنا على إرادة العدو بغرض التحكم في أعماله بطرق غير الطرق العسكرية ، ووسائل غير الوسائل الاقتصادية " [4].

فالحرب النفسية إستراتيجية غير مباشرة في الحروب ، لا تتخذ المواجهة وجها لوجه سبيلا لها ، بل تسلك مسالك ملتوية ، و حيلا دفاعية ، بما يصدق عليها قوله- صلى الله عليه و سلم- :" الحرب خدعة ".

إن القائد الناجح و النموذجي هو الذي يجهز على خصمه ، و يحطم ما تبقى فيه من مقاومة ، و يبث الرعب في نفسه ، و يدفعه إلى الاستسلام من دون سلاح أو قتال ، أو كما يقول القائد الألماني "روميل": "إن القائد الناجح هو الذي يسيطر على عقول أعدائه قبل إبدائهم " [5].

و بما أن الكلمة مرتبطة في بدايتها بالسحر منذ أقدم العصور ، فإنها – تبعا لذلك- جاءت مقترنة بقوى غيبية بما يضمن هز نفوس و مشاعر العدو و الخصم، لما تتمتع به من أثر فعال و عميق في النفوس ، و لعل عبارة الفيلسوف البريطاني " ف. هـ . برادلي " في هذا الخصوص تغني عن قول الكثير، فالكلمة في نظره عبارة عن : " رقصة" جيرك" تدفع بالدماء حارة في العروق"[6].

إذ أن " سلاحها هو الكلمات و الأفكار من خلال ما يطلق عليه حديثا : الدعاية ، و الشائعة ، و غسيل الدماغ "[7].

و سنحاول في هذا الصدد استكناه تجليات العامل النفسي في شعر أبي فراس الحربي ، الذي اجتمع في شخصه سلاحان :سلاح القلم و السيف معا ، جنبا إلى جنب ، حارب مع ابن عمه سيف الدولة ضد القبائل الخارجة عن الإمارة الحمدانية ، إلى جانب الجبهة الخارجية المتمثلة في البيزنطيين، في وقت تخاذل فيه المسلمون، و انقسمت دولتهم ، و ضاعت فيه الخلافة ،التي لم يبق منها غير الاسم ، فكانت إمارة بني حمدان غرة في جبين العرب ، الوحيدة التي صمدت و دافعت عن العروبة و الإسلام، ضد الخطرين الداخلي و الخارجي بقيادة أعظم قائدين عربيين : سيف الدولة و أبي فراس الحمداني.

و بما أن عدو العرب و المسلمين اللدود هو المتربص بهم في الخارج ، هو الآخر المختلف عنهم فكرا ، و لغة ، و عقيدة ، إنهم الروم الذين جمعتهم مع العرب معارك ضارية ، ممتدة بجذورها في أعماق التاريخ ، فكانت الحروب بين الطرفين سجالا ، و بموجب ذلك سوف نقصر الجانب النفسي في شعر أبي فراس الحربي على حروب الحمدانيين ضد البيزنطيين، ما يدل على وعي الشاعر العميق بمفعول العامل النفسي الخطير في هذا الميدان، فجاء توظيفه للعامل النفسي بارزا و متنوع الاستخدام ، تجلى في شعره من خلال :

1-بعث السجل التاريخي:

و ذلك بإحياء الشاعر للسجل الحافل بانتصارات العرب على الروم ، من ذلك رائعته البائية ، التي كانت بمثابة مناظرة جرت بين أبي فراس و الدمستق قائد الروم، بمناسبة تكذيبه لادعاءات الأخير بأن الحمدانيين هم أهل كتابة لا قتال ، فارتأى الشاعر إلى تعداد مناقب الحمدانيين في القتال ، مكذبا بذلك مزاعم الدمستق قائلا:[8]

أتزعم يا ضخم اللغاديد أننا و نحن اسود الحرب لا نعرف الحربا
فويلك من للحرب إن لم نكن لها و من ذا الذي يمسي و يضحي لها تربا
و من ذا يلف الجيش من جنباته؟ و من ذا يقود الشم أو يصدم القلبا

وويلك من أردى أخاك بمرعش و جلل ضربا وجه والدك العضبا
وويلك من خلى ابن أختك موثقا وخلاك باللقان تبتدر الشعبا
أتوعدنا بالحرب حتى كأننا و إياك لم يعصب بها قلبنا عصبا؟
لقد جمعتنا الحرب من قبل هذه فكنا بها أسدا و كنت بها كلبا
فسل بردسا عنا أخاك و صهره و سل آل برداليس أعظمكم خطبا
و سل قرقواسا و الشميشق صهره و سل سبطه البطريق أثبتكم قلبا
و سل صيدكم آل الملاين إننا نهبنا ببيض الهند عزهم نهبا
و سل آل بهرام و آل بلنطس و سل آل منوال الجحاجحة الغلبا
و سل بالبرطسيس العساكر كلها و سل بالمنسطرياطس الروم و العربا
ألم تفنهم قتلا و أسرى سيوفنا؟ و أسد الشرى الملأى و إن جمدت رعبا
بأقلامنا أجحر تام بسيوفنا ؟ و أسد الشرى قدنا إليك أم الكتبا ؟ (*)

فالشاعر الأمير بصدد تذكير العدو بسلسلة الانتصارات التي حظي بها الحمدانيون ضد الروم و قادتهم، و الهزائم التي منيوا بها أبا و جدا ، معددا أسماءهم واحدا واحدا ، ابتداء بأقرب الناس إلى الدمستق و هو والده ،و لعل آثار الأسنة و السيوف على وجوههم و أجسادهم ، و جثث القتلى التي شهدها سابقوه هي خير إجابة على مزاعم الدمستق ، فالشاعر لم يكن يتساءل بقدر ما كان يستنكر أن يكون الحمدانيون أهل كتابة و لا علاقة لهم بالقتال و حمل السلاح ، ثم نجده يتساءل ساخرا من "الدمستق" بعد كل هذا : هل تراهم هزموا في عقر دارهم بالأقلام أم بالسيوف ؟ و في ذلك جانب نفسي لا يخفى من حيث التأثير على جنود الروم و قوادهم و منهم الدمستق ، حيث تعود ذاكرتهم إلى استعادة ذاك الشريط المنسوج من مشاهد دامية و مهولة ،جراء انهزامهم أمام الحمدانيين ، الأمر الذي من شأنه أن يبث في الأعداء مشاعر التردد و الخوف من مواجهة الحمدانيين من جديد ، فتبث الرهبة في نفوسهم.

2-الدعاية للحمدانيين:

اختلف الجانب الدعائي في شعر أبي فراس و تنوع ما بين دعاية لشخص الشاعر (أبي فراس) ،و سيف الدولة ، و كذا للحمدانيين من الآباء و الأجداد ، على أن هذا التنوع لا يخرج عن هدف واحد، ألا و هو بث الفزع و الرعب في جيش العدو من الروم.

يقول الشاعر داعيا و مذيعا لمدى قوته و رباطة جأشه في ميدان الحرب: (9)

تأملني الدمستق إذ رآني فأبصر صيغة الليث الهمام

أتنكرني كأنك لست تدري بأني ذلك البطل المحامي

و أني إذ نزلت على دلوك(**) تركتك غير متصل النظام

و يزداد تغني الشاعر ببطولاته في مواجهة الروم خاصة حينما وقع أسيرا في قبضة الروم ، فتغدو نبرته متعالية رغم القيد ووضع الأسر ، فيقول معاتبا سيف الدولة على تأخره في فدائه ، مفتخرا في الآن ذاته: [10]

فمثلك من يدعى لكل عظيمة و مثلي من يفدى بكل مسود

....

متى تخلف الأيام مثلي لكم فتى طويل نجاد السيف رحب المقلد؟

متى تلد الأيام مثلي لكم فتى شديدا على البأساء غير ملهد؟

فإن تفتدوني تفتدوا شرف العلا و أسرع عواد إليها معود

وإن تفتدوني تفتدوا لعلاكم فتى غير مردود اللسان أو اليد

يدافع عن أعراضكم بلسانه و يضرب عنكم بالحسام المهند

....

ألم تر أني فيك صافحت حدها و فيك شربت الموت غير مصرد؟

....

فقلت : أما و الله لا قال قائل شهدت له في الحرب ألأم مشهد

فأبو فراس يذكر ابن عمه بمواقفه البطولية ، و بمسارعته إلى خوض غمار الحروب في شجاعة متناهية ضد الأعداء سواء في مقاتلة القبائل العربية الثائرة ، أو في مقاتلة الروم. و هو إلى جانب استعطافه ابن عمه ، نجده متحديا قيود أسر الروم له بأنفته و كبريائه ، و عدم إظهار ضعفه لهم ، معددا بأسه و بطشه بالأعداء دونما رحمة[11]:

فلا تنكريني يا ابنة العم إنه ليعرف من أنكرته البدو و الحضر

و لا تنكريني إنني غير منكر إذا زلت الأقدام و استنزل النصر

و إني لجرار لكل كتيبة معودة أن لا يخل بها النصر

و إني لنزال بكل مخوفة كثير إلى نزالها النظر الشزر

فأظمأ حتى ترتوي البيض و القنا و أسغب حتى يشبع الذئب و النسر

و هي صورة ألفها الأعداء من أبي فراس ، و هي دليل على قوة بطش لا متناهية غير رحيمة ، فبقوته الخارقة و فتكه بالعدو يهيب أعداءه منه ، فيخافون جانبه.

و نجد الشاعر يوسع من نطاق الدعاية من نطاق الفردية إلى الجماعية ، فيشرك سيف الدولة و قومه في نسج تلك البطولات في صورة دعائية تشيع لشجاعة الحمدانيين ، و سرعة فتكهم بأعدائهم من الروم [12]):

وللوراث إرث أبي و جدي جياد الخيل و الأسل الطوال

و ما تجني سراة بني أبينا سوى ثمرات أطراف العوالي

....

إذا لم تمسي لي نار فإني أبيت لنار غيري غير صال

أوينا بين أطناب الأعادي إلى بلد من النصار خال

نمد بيوتنا من كل فج به بين الأراقم و الصلال

نعاف قطونه ، و نمل منه و يمنعنا الإباء من الزيال

مخافة أن يقال بكل أرض بنو حمدان كفوا عن قتال

....

و أنت أشد هذا الناس بأسا و أصبرهم على نوب القتال

و أهجمهم على جيش كثيف و أغورهم على حي حلال

ضربت فلم تدع للسيف حدا و جلت بحيث ضاق عن المجال .

إن بلوغ غايات الحمدانيين و مجدهم لم يكن إلا بأطراف الأسنة، و أشفار السيوف ، فجاءت حروبهم سجالا مع أعدائهم ، بما يثبت شجاعتهم و عدم الكلل أو الملل في قتالهم ،خصوصا إذا حظوا بقائد محنك و شجاع كسيف الدولة ، و قد أسهمت صيغ " أفعل" في:أشد- أهجمهم- أصبرهم- أغورهم..في تكثيف هذه الدلالة ،و إبراز المكانة الحقيقية للقائد في صفوف جيشه بما يكسب جنده الثقة بنفوسهم و كذا بإمكانياتهم ، في مقابل بث روح التخاذل و التفرقة في صفوف العدو.

3- التهوين من الهزيمة:

لجأ أبو فراس إلى التهوين من شأن هزيمته أمام الروم ووقوعه أسيرا ، مكبلا بأصفادهم ، إذ لم يقو الشاعر على دفن مجده الماضي مع أعدائه من الروم ، فظل منتشيا ، متغنيا بوقائعه معهم بكل أنفة و كبرياء ، فيقول صادحا:[13]

إن زرت "خرشنة"[***] أسيرا فلكم أحطت بها مغيرا

و لقد رأيت النار تن تهب المنازل و القصورا

و لقد رأيت السبي يجـ لب نحونا حوا و حورا
نختار منه الغادة ال حسناء و الظبي الغريرا
إن طال ليلي في ذرا ك فقد نعمت به قصيرا
من كان مثلي لم يبت إلا أسيرا أو أميرا
ليست تحل سراتنا إلا الصدور أو القبورا

فالشاعر يبعث صورا مجيدة جسدت تغلبه على الروم في مقارنة بين الماضي و الحاضر ، بين ماض مشرق ، و حاضر أليم خلف قضبان السجون ، غير أن أبا فراس يحاول إخفاء ألمه ، باستحضار حروبه السابقة ضد الروم في "خرشنة" التي أسر فيها ، مذكرا الروم بالمشاهد الدامية التي خلفها فيهم ، و مختلف صور الخراب و الدمار الذي لحقهم ، ما بين الحرق ، و القتل ، و السبي ، و ما كل ذلك إلا إثباتا لرباطة جأش أبي فراس و ثباته في مواجهة الروم ، فهو الذي لا يعرف للفرار سبيلا ، مفضلا الموت الشريف على حياة متبوعة بمذلة و عار ، و هو ما يأباه الطبع العربي منذ الجاهلية ، و نلفي في هذا الاستحضار و الاغتراف من الماضي مذلة للعدو الرومي ، و مدى عجزه عن مواجهة الحمدانيين ، إلى جانب بعث صور الفزع و الرعب الذي خلفه ببسالته في نفوسهم.

و في صورة أخرى يفتخر الشاعر الأسير بثباته في مواجهة الأعداء -و إن وقع أسيرا في قبضتهم- مذكرا ببطشه بهم ، و إعمال السلاح في رقابهم فنجده يقول[14]:

أسرت و ما صحبي بعزل لدى الوغى و لا فرسي مهر ، ولا ربه غمر
....
يمنون أن خلوا ثيابي و إنما علي ثياب من دمائهم حمر
و قائم سيف فيهم اندق نصله و أعقاب رمح فيهم حطم الصدر

و في تلك الصور تهوين ، و ترويح للشاعر الأسير على نفسه ، كيف لا ؟ و هو الرجل و الفارس الممنع جانبه ، لم يعتد أبدا على الهزيمة ، و لا يتقبلها ، و هو الأمر الذي يجعله يتناسى وضعه في الأسر ، و من جانب آخر لا يجعل عدوه الرومي يتلذذ بضعفه ، فيشعره دوما بتغلبه عليهم في مواقف بطولية يندى لها الجبين ، فتكبر صورته في أعينهم و تهاب ، حتى و إن كان في كبلهم.

4- الاستعداد العسكري:

و ظف أبو فراس الاستعداد المادي أو العسكري ، من أسلحة و ذخائر عاملا نفسيا يرهب به العدو الرومي ، كقوله [15]:

إذا ما الفتى أذكى مغاورة العدى فكل بلاد حل ساحتها ثغر

و يوم كأن الأرض شابت لهوله قطعت بخيل حشو فرسانها صبر

تسير على مثل الملاء منشرا و آثارها طرز لأطرافها حمر

فهنا وظف الشاعر الاستعداد العسكري من خيول معدة خصيصا للحروب ، و من فرسان متمرسين من ذوي الخبرة في ميدان الحرب ، إلى جانب أسلحة حادة كفيلة بهزم الأعداء ، في استحضار خفي لمضمون الآية الكريمة و تطبيقا لمحتواها في ما يتعلق بمقاتلة أعداء الإسلام و المسلمين ، في **قوله تعالى:" و أعدوا لهم ما استطعتم من قوة و من رباط الخيل ترهبون به عدو الله و عدوكم ".**[16]

و يقول الشاعر أيضا بهذا الخصوص[17]:

جمعت سيوف الهند من كل بلدة و أعددت للهيجاء كل مجالد

و أكثرت للغارات بيني و بينهم بنات البكيريات حول المزاود

و في هذا تلميح على وفرة الإعداد المادي من معدات حربية (سيوف حادة ، خيول أصيلة ،...) بما يضمن النصر ، و إدخال الرهبة و التشتت في صفوف الأعداء حتى قبل المنازلة ، فيترددون في الإقدام على مواجهة قوة الحمدانيين .

5-استراتيجية الرعب:

تجلت مظاهر الرعب عبر عدة مشاهد دامية ، وظفها أبو فراس في شعره الحربي ضد الروم ، فجاءت متلونة منها :

أ- مشهد القتل:

رصد الشاعر مشاهد دامية لقتلى الأعداء البيزنطيين ، و الفتك بهم دونما رحمة أو عطف ، على خلاف معاملته لبعض القبائل العربية الثائرة ، مثال قوله:[18]

مرير على الأعداء ، لكن جاره إلى خصب الأكناف عذب الموارد

و من صور بطش الحمدانيين بالروم قول الشاعر[19]:

و شق إلى نفس الدمستق جيشه بأرض سلام و القنا متشاجر

سقى أرسنانا مثله من دمائهم عشية غصت بالقلوب الحناجر

و بات يدير الرأي من كل وجهة و ذو الحزم ناهيه و ذو العزم آمر

....

و أوقع في جلباط بالروم وقعة بها العمق ، و اللكام و البرج فاخر

و أوطأها بطن اللقان و ظهره يطأن به القتلى خفاف خوادر
أخذن بأنفاس الدمستق و ابنه و عبرن بالتيجان من هو عابر
و جبن بلاد الروم ستين ليلة تغاور ملك الروم فيمن تغاور
تخر لنا تلك المعاقل سجدا و ترمي لنا بالأهل تلك المطامر

....

و لما وردنا الدرب و الروم فوقه و قدر قسطنطين أن ليس صادر
ضربنا بها عرض الفرات كأنما تسير بنا تحت السروج جزائر
إلى أن وردنا أرقنين نسوقها و قد نكلت أعقابها و المخاصر
و مال بها ذات اليمين لمرعش مجاهيد يتلو الصابر المتصابر
فلما رأت جيش الدمستق راجعت عزائمها ، و استنهضتها البصائر
و ما زلن يحملن النفوس على الوجى إلى أن خضبن بالدماء الأشاعر(****)

فالشاعر هنا ينقل لنا صورة حية عن التقاء الجيشين : جيش سيف الدولة و جيش الروم ، و احتدام المعركة و شراستها بين الجانبين ، و كيف أن النصر كان حليفا لسيف الدولة ، الذي تركهم يسبحون في غمرة من دمائهم ، متشتتة أفكارهم ، حيارى لأن سيف الدولة جابههم بغير ما توقعوا بجيشه الخارق ، الذي لا يكل فرسانه –و كذا خيوله- ولا يتعبون ، فطاقتهم فوق طاقة البشر ، في قصة مثيرة ، تتابعت أحداثها ووقائعها الدامية و المؤلمة في جند الروم ، و كذا قوادهم بالرغم من قوة جانب هذا الأخير و منعته ، بدليل اعتراف الشاعر نفسه ، و إنصافه لجانبهم [20]:

فلما رأت جيش الدمستق راجعت عزائمها و استنهضتها البصائر

إلا أن قوة الحمدانيين واجهت قوى الخصم بغير ما توقعوا ، فجعلتهم يعيدون الاعتبار لقوة سيف الدولة و الحمدانيين التي لا يستهان بها ، فيرهب جانبهم قبل لقائهم ، أو حتى مجرد التفكير في مواجهتهم.

ب- الفتك بالقادة:

عمد أبو فراس إلى توظيف هذا العنصر كعامل نفسي بعيد الأثر في تشتيت صفوف العدو ، و بث الفزع فيهم و إرباكهم معنويا ، فجاءت صورة قادة العدو الرومي و ملوكهم جد مخزية ، فهم ضعفاء ، أسرى ، أذلاء عند الحمدانيين ، و هو ما يكذب مزاعمهم في قدرتهم على التفوق عليهم ، إلى جانب تشتت صفوف جيوشهم ، بل و سحب ثقتهم و مصداقيتهم في قادتهم ، تجلى ذلك في قول أبي فراس[21]:

و حسبي بها يوم الأحيدب(*****) وقعة على مثلها في العز تثنى الخناصر

....

إذ الشيخ لا يلوي و نقفور(******) مجحر و في القيد ألف كالليوث قساور

و لم يبق إلا صهره ، و ابن بنته و ثور بالباقين من هو ثائر

و قوله أيضا[22]:

و ابن بقسطنطين و هو مكبل تحف بطاريق به و زراور

وولى على الرسم الدمستق هاربا و في وجهه عذر من السيف عاذر

كانت هذه صورة قادة الروم ، في مواقف حرجة ، ما بين أسير مكبل ، و جريح و فار ، و في كل ذلك إهانة و مذلة لا يخفيان ،و نجد أبا فراس من جانب آخر يلمح إلى أن هؤلاء القادة قد جروا الدمار و الخراب على بلادهم و أهلها ، رغم علمهم بالعاقبة الوخيمة على يد سيف الدولة و الحمدانيين بعامة ، و الذين تجاوزوا بقوتهم الحد المعقول ، بما يضمن تفريق صفوف العدو فيفقد الجنود ثقتهم في نفوسهم و في قادتهم ، ومكانتهم السابقة ، و هو موقف دون شك سوف يكون لصالح الحمدانيين [23]:

و قد درى الروم مذ جاوزت أرضهم أن ليس يعصمهم سهل ولا جبل

ج- مشهد السبايا:

جاءت معاملة الحمدانيين للسبايا من الناحية النفسية مماثلة لمعاملة قادة و جند بلادهم ، فمساحة الرعب امتدت لتشمل نفوس سبايا الروم ، فقد جعلتهن الحرب و مخلفاتها تظهرن في حالة يرثى لها من حزن و قهر نفسي، على ما حل بالبلاد و المقربين من العباد نتيجة بطش الحمدانيين بهم، و خصوصا إن كن من علية القوم ، فيقول الشاعر مجسدا هذا المظهر[24]:

و مستردفات من نساء و صبية تثنى على أكتافهن الضفائر

بنيات أملاك أتين فجاءة قهرن و في أعناقهن الجواهر

من هنا نجد أن إذلال الحمدانيين لنساء الروم السبايا ، ما هو في حقيقته سوى إذلال لأهلهن الذين عجزوا عن نجدتهن ، و تركوهن يصارعن هذا الرعب و الفزع النفسيين بمفردهن ، و هو بمثابة تعيير لقومهن الذين لم يستطيعوا منعة نسائهن و حمايتهن ، وهذا العامل يعد عنصرا من عناصر العرض لدى العربي منذ القديم يعير به خصمه ، ومن ثمة بهزيمته الشنعاء.

6-عامل المفاجأة / المباغتة/ الهجوم :

لعب عامل مفاجأة العدو و مباغتته في عقر داره أهمية بالغة في خلخلة توازن قواه ، و إرباكه معنويا ، تجلى ذلك في قول أبي فراس مثلا[25]:

و مازال منا جار خرشنة امرؤ يراوحها في غارة و يباكر

فمباشرة الحمدانيين للعدو الرومي في وضح النهار دليل على شجاعتهم ، و رباطة جأشهم في ميدان الحروب ، فلا تروعهم قوة أعدائهم ، بقدر ما يضعون النصر نصب أعينهم .

و يقول الشاعر أيضا [26]:

غزا الروم لم يقصد جوانب غرة و لا سبقته بالمراد النذائر

فلم تر إلا فالقا هام فيلق و بحرا له تحت العجاجة ماخر

....

بنيات أملاك أتين فجاءة قهرن و في أعناقهن الجواهر

فهجوم الحمدانيين المباغت على أعدائهم من الروم ، لم يكن عن سابق إشعار ، على خلاف معاملتهم للقبائل العربية الخارجة عن عصا الطاعة ، و كأن الإشعار مع الأخيرة يقوم مقام الإنذار و إعطاء مهلة لها لمراجعة مواقفها ، فهم في النهاية عرب تجمعهما أرومة واحدة ، على

خلاف معاملة الروم الذي مثل الآخر المختلف ، كما أنه عدو العرب و المسلمين الألد ، و منه نفهم السر في الهجوم المفاجئ ، و الإجهاز عليه على حين غفلة ، بما يجني مكاسب كبيرة للحمدانيين ، إلى جانب إرباك صفوف الأعداء و تشتيت تركيزهم و انتباههم ، فلا يشعرون إلا بالرؤوس تتطاير على شفار سيوف الحمدانيين ، و نسائهم مسبيات ، ذليلات و قد أخذ الروع من نفوسهن مأخذه ، فيرهبون جانب سيف الدولة و جنده

دونما استهانة بقوته ، فيحسبون ألف حساب لملاقاته مستقبلا .

7- السخرية و الاستهزاء :

وظف أبو فراس السخرية من العدو الرومي و الاستهزاء به كعامل نفسي له دوره غير المستهان به من حيث إنزال الخصم منزلته الحقيقية ، و إعطائه الحجم الذي يستحق خاصة بعد تحقق هزيمته ، يقول أبو فراس مجسدا حالة قائد الروم التي وصل إليها [27]:

تركناك في بطن الفلاة تجوبها كما انتفق اليربوع يلتثم التربا

تفاخرنا بالطعن و الضرب في الوغى لقد أوسعتك يا ابن استها كذبا

رعى الله أوفانا إذا قال ذمة و أنفذنا طعنا و أثبتنا قلبا

وجدت أباك العلج لما خبرته أقلكم خبرا و أكثركم عجبا

في صورة ساخرة يشبه أبو فراس قائد الروم في خوفه و فراره من ساحة المعركة ، كمثل اليربوع و هو نوع من أنواع الفأر، يستر وجهه في التراب خوفا و رعبا ، ثم يسائله مكذبا مزاعمه و ظنونه بأن جانبهم ممنع ، فهم و إن خانتهم قوتهم و كلمتهم بتحقيق النصر، فإن الحمدانيين قد تمكنوا من ذلك ووفوا به حق الوفاء ببطشهم و ثباتهم في الحروب ، بما يجلب العار و الخذلان لصفوف العدو الرومي.

و يقول الشاعر مكذبا مزاعم الدمستق قائد الروم ، و تعريفه بمنزلته و قوته في مقارعته في ساحة الوغى بأسلوب ساخر [28]:

تأملني الدمستق إذ رآني فأبصر صيغة الليث الهمام

أتنكرني كأنك لست تدري بأني ذلك البطل المحامي

و أني إذ نزلت على دلوك تركتك غير متصل النظام

....

و كنت ترى الأناة و تدعيها فأعجلك الطعان عن الكلام

و بت مؤرقا من غير سقم حمى جفنيك طيب النوم حام

إن أبا فراس لا ينطلق عن فراغ ، أو من أسس واهية في مواجهة خصمه ، و إنما يكذب مزاعمه بأدلة واقعية ملموسة يشهد عليها التاريخ ، و كيف أن وقائعه معهم سلبت جفونهم لذة الكرى ، لتدخل قائدهم في عصاب حرب أبدا لا ينتهي ، وفي ذلك تذكير للعدو، و إرهاب لنفوسهم، و بث الفزع في صفوفهم حتى قبل بدء المواجهة ، فتتحقق هزيمة العدو بأقل التكاليف.

و لا يوجد هناك ما يعادل فرار الخصم من ميدان المعركة حرصا على حياته،

و تعييره بذلك ، إذ في ذلك عار عليه و على قومه ، يقول الشاعر مصورا فرار جند الروم بما في ذلك قائدهم ، مستهزئا [29]:

وولى على الرسم الدمستق هاربا و في وجهه عذر من السيف عاذر

فدى نفسه بابن عليه كنفسه و للشدة الصماء تقنى الذخائر

و قد يقطع العضو النفيس لغيره و تدفع بالأمر الكبير الكبائر

فأبو فراس يسخر من قائد الروم لهروبه من المعركة جريحا ، تاركا ابنه " قسطنطين" وراءه يصارع الهلاك بمفرده ، فقد جعل " الدمستق" ابنه بمثابة الحصن الذي ادخره للأوقات الصعبة ليمنعه من الوقوع أسيرا في أيدي الحمدانيين ، و لا يخفى ما في هذا الموقف من ذل لقائد العدو ، إلى جانب أن هذا الموقف السلبي من شأنه أن يبث روح اليأس والتخاذل في صفوف جنده ،و كذا فقدان الثقة في حماية قائدهم لهم بما في ذلك ابنه "قسطنطين".

8- العامل الديني:

لجأ أبو فراس إلى استغلال العامل الديني في حربه النفسية ضد الروم ، ليرفع من خلاله معنويات الجنود من المسلمين في مواجهة أعدائهم البيزنطيين ، فيقول مثلا [30]:

سيف الهدى من حد سيفك يرتجى يوم يذل الكفر للإيمان

هذي الجيوش تجيش نحو بلادكم محفوفة بالكفر و الصلبان

....

قد أغضبوكم فاغضبوا ، و تأهبوا للحرب أهبة ثائر غضبان

فالشاعر من خلال هذه الأبيات عن الحرب بين الحمدانيين و الروم إلى حرب دينية ، بين الإسلام و الكفر، و لذا كان من واجب المسلمين الجهاد ضد عدو الله و عدوهم ، لذا نجده يحمس الجنود الحمدانيين ، ويدفعهم دفعا لقتالهم دونما هوادة أو تراجع ، و دون شك فإن هذا الإقدام و الثبات من جانب المقاتلين المسلمين من شأنه أن يبث الرهبة في نفوس العدو الجبان ، فيجعلهم يتساءلون فيما بينهم عن السر القابع وراء هذا الثبات ، و عدم الخوف من الموت ؟؟ ، فيغدو بالتالي جهادهم و كأنه فريضة يجب أداؤها ، علاوة على ما وعد به الحق تعالى المجاهدين من أجر و ثواب ، **قال تعالى: " ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون "** [31] .

و في موقف آخر يوظف الشاعر العامل الديني مستهزئا من نظيره "الدمستق" قائلا[32]:

فقل لابن فقاس : دع الحرب جانبا فإنك رومي و خصمك مسلم

في إشارة واضحة من الشاعر إلى أن النصر في الحرب سيكون حليفا للمسلمين لا محالة ، أي سيكون لعقيدة الإسلام في مقابل عقيدة الكفر ، لذا نلتمس من خلال هذا تثبيطا من طرف أبي فراس لخصمه قبل بدء المنازلة ، و محاولة إقناعه بضرورة ترك الحرب لأنها لن تكون أبدا لصالحه.

و في الأخير نلفي الشاعر أبا فراس قد وفق إلى حد كبير في توظيفه العامل النفسي في مقارعة أعداء الحمدانيين و العرب من الروم ، فجاء هذا التوظيف متنوعا ، متخذا أساليب عديدة حسب ما يقتضيه الموقف، و هي و إن تعددت إلا أنها تتلاقى في الأخير لتصب في مصب واحد، ألا و هو محاولة التأثير في سلوك العدو، و حمله على تغيير موقفه ، و بث روح التخاذل بين صفوفه ،في مقابل رفع معنويات الجنود الحمدانيين و قادتهم، بما يكفل الهزيمة للطرف الأول (الروم) ، و النصر للطرف الثاني (الحمدانيين) ، بل و بأقل التكاليف.

الهوامش:

1-حميدة مهدي سميسم : الحرب النفسية ، الدار الثقافية للنشر ،دط،2004، ص ،ص: 21،22.

2-عبد الرحمن بن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ،ط2006،9،ص:211.

3-مجموعة من الباحثين :الإستراتيجية السياسية العسكرية ،إشراف العماد الدكتور مصطفى طلاس ، الجزء الأول، مكتبة دار طلاس،دمشق،سوريا،دط،دت،ص:425.

4-فهمي النجار: الحرب النفسية (أضواء إسلامية) ، سلسلة الرسائل الجامعية (40)، دار الفضيلة ، الرياض –السعودية، ص:68.

5-مايكل يوسف سلوانس يوسف : بحث في الحرب النفسية ، جامعة قناة السويس ، كلية التربية ، دط،2009،ص:03.

6-حسين عبد الحميد أحمد رشوان : الأدب و المجتمع ، دراسة في علم اجتماع الأدب ، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية ،ط2004،1،-2005،ص:05.

7-فهمي النجار: الحرب النفسية (أضواء إسلامية) ، سلسلة الرسائل الجامعية (40)،ص:156.

8-أبو فراس الحمداني : ديوانه، تحقيق: بدر الدين حاضري محمد حمامي، دار الشرق العربي ،بيروت ،لبنان، ط1992،1،ص،ص،: 39،40.

(*) أسماء أسرى و أبطال بيزنطيين.

9- المصدر نفسه ،ص: 198.

(**) دلوك: بلدة من العواصم.

10- المصدر نفسه ،ص،ص:69،70.

11- المصدر نفسه ،ص:120.

12- المصدر نفسه ،ص،ص:156،157.

13- المصدر نفسه ،ص،ص:116،117.

(***) خرشنة: قلعة في بلاد الروم يجري الفرات من تحتها.

14- المصدر نفسه ،ص،ص:121،122.

15- المصدر نفسه ،ص:108.

16- سورة الأنفال: آية : 60.

17- أبو فراس الحمداني، ديوانه ،ص:72.

18- المصدر نفسه ،ص:72.

19- المصدر نفسه ،ص،ص:90،91.

(****) الأشاعر: ما أحاط بحافر الدابة من منتهى الجلد.

20- المصدر نفسه ،ص:91.

21- المصدر نفسه ،ص،ص:91،92.

(*****) الأحيدب: جبل هزم فيه سيف الدولة الدمستق ، و أسر صهره و ابن ابنته.

22- المصدر نفسه ،ص:91.

23- المصدر نفسه ،ص:170.

24- المصدر نفسه ،ص:88.

25- المصدر نفسه ،ص:91.

26- المصدر نفسه ،ص:88.

27- المصدر نفسه ،ص،ص:40،41.

28- المصدر نفسه ،ص،ص:198،199.

29- المصدر نفسه ،ص:91.

30- المصدر نفسه ،ص:216.

31- سورة آل عمران : آية: 169.

32- أبو فراس الحمداني، ديوانه،ص: 203.